

إشكالية الزمن الفلسفية ودلالاته الحركية في رواية «ذاك الحنين» للحبيب السايح

الأستاذ: بهلول شعبان
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة سعيدة كلية الآداب واللغات

1- الزمن وإشكاليته الفلسفية:

تعدّ عملية الفصل بين الزمان والمكان عملية شكلية وإجرائية يقتضيها الدرس النقدي نظرا للتداخل والتلازم الشديد بينهما، وترابطهما الوثيق يجسّد التأثير والتأثير، وتبرز تجليات ذلك التفاعل على كل عنصر منهما "وإذا كان النقاد قد أغلوا من شأن الزمان وقدموه على المكان لقيّمته البنيوية العالية فقد رأوا بأنّ الزمن هو العنصر الأساسي لوجود العالم التخيلي نفسه".¹

وستتوخى دراستي للزمان لأهميته الخصبة في الدرس النقدي، فإذا كان النقاد قد تناولوه بطرائق مختلفة، فإنّ هذه المقاربة سيكون لها منحان أولهما فلسفي وثانيهما أدبي، ذلك لأنّ العمل النقدي لم يهتم به إلا من حيث تعاقبه وفق الأحداث التاريخية وانتظام الحكي من خلاله، إلا أنّ أهميته بدأت تأخذ بعدا فلسفيا لاهتمام الإنسان به كإطار ينظم في داخله، فهو يمثل عصب حياته وشرطانا نابضا من شرايين الرواية وخاصة في أبعادها الجمالية القائمة على الإبداع وتوظيف أساليب الزمن المختلفة حينما صار يدرس في علاقاته المتشابكة، وقد امتزج الإنسان والزمان والمكان معا «إذ تبدو حركة التطور الزماني من خلال الخصائص الإنسانية التي تمتاز سماتها الذاتية بفعاليات التطور الاجتماعي والفكري لأنّ هناك أحوال وعادات تتغيّر يوما بعد يوم بصفة دائمة مع مسار الزمان». ²

فالزمن الذي ستطرقه الدراسة هو الزمان المدرك نفسيا وتجلياته في الواقع الإنساني، فقد وظّفته الرواية من خلال وعي الإنسان به، إنّها دراسة تتجه إلى الزمان الخاص بالإنسان وهويتحرك ضمنه، إنّها جدلية بين الزمان الحقيقي الثابت في نفسه والمتغيّر الخارجي، فالأول

1 ينظر، أسية البوعلي، أهمية الزمان في الفلسفة والأدب، مدخل نظري، مجلة نزوى، ع: 26، 2001.

2 أحمد طالب، مفهوم الزمان ودلالاته في الفلسفة والأدب (بين النظرية والتطبيق) دار الغرب للنشر والتوزيع، 2004، ص: 9.

يحقق وجوده واستمراره أمّا الآخر فقد يعطل حركته، فالدراسة تمزج بين الإطار الفلسفي والقالب الأدبي المتنوّع للأساليب والتقنيات "وقد سارت الرواية الحديثة في تعاملها مع الزمن تعاملًا فلسفيًا وصوفيًا وبذلك يتحوّل الزمان فيها من البساطة إلى جزء من فلسفة الذات الحياتية، وبهذا التوجه الجديد يمكن القول دون مبالغة أنّ هذا الزمن الوجداني الداخلي الخاص بالإنسان قد أصبح موضوعًا أساسيًا من موضوعات الأدب في الرواية الحديثة بصفة خاصة".¹ وبذلك تكون الرواية قد عمّقت مفهوم الزمان في ارتباطه بالوجود وعلاقته بالإنسان متجاوزة الدرس التقليدي القائم على التراتب التاريخي.

2- الإنسان وفلسفة الزمن:

الزمان فكرة قديمة طاردت الإنسان في رحله وترحاله وأرقت مضجعه، وظاهرة وجدت مع وجوده فارتبطت به ارتباطًا وثيقًا فأدرك حقيقتها وسبر أغوارها، فعلم أنّ الزمن هو الخطر الحقيقي الذي يدهمه في كل لحظة فراح عبر تجسّداته المادية والأثرية يتحدّاه ويقاوم سلطته والانتصار عليه، لكن عجزه كان أكثر من تحديه، ومطاوعته له كانت عسيرة "ومادام الأمر كذلك فلم يعد أمام تلك الذات (الإنسانية) التي تحصّنت بقلعتها إلا أن تدخل في سباق محموم مع ما تبقى من الزمن".²

دفع هذا الهاجس المتواصل الإنسان للبحث في النواميس التي تحكمه وتنظمه حتى يتمكن من السيطرة عليه إن استطاع ويخضعه لإرادته، ومن ثم ابتدأت الإشكالية بعمقها الدلالي وبعدها الفلسفي وخاصة بعد إدراك العلاقة التلازمية بينه وبين الإنسان لأنّه يمثل جزءًا من الخبرة الإنسانية، وكونه مرتبطًا الوعي الإنساني إلا أنّ مفهومه المشكل اختلفت بشأنه الآراء والتفسيرات، وغدا مقولة فلسفية تطرح الكثير من الأسئلة المتعلقة وتضاربت في ماهيته المذاهب، ولهذا لا نكون مبالغين أو عادلين إذا وصفنا القديس أوغسطين بالعجز وهويبرر صعوبة تحديد ماهيته للزمان في مقولته المشهورة حين سئل عنه "عندما لا يطرح عليّ أحد هذا السؤال فإنني أعرف، وعندما يطرح عليّ فإنني أنذاك لا أعرف شيئًا".³ فهذه المقولة تبرز مدى صعوبة القبض على هذه المادة المعنوية وخاصة في بعدها الفلسفي لأنّها مجردة ولا تدرك

1 أسية البوعلي، المرجع السابق، مجلة نزوى، ع: 26.

2 فوزي عيسى، تجليات الشعرية، قراءة في الشعر المعاصر، منشأة المعارف بالإسكندرية، د.ت، د.ط.ص: 70.

3 أوغسطين، نقلًا عن، سعيد قطّين، تحليل الخطاب الروائي (الزمن/السرد/التبيين)، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط. 1997، ص: 61.

إلا إدراكا نفسيا، ومع ماهيته الفلسفية المعقدة فقد انطلقت الأبحاث تقارب بعضا من حقائقه ذلك لأنّ "مقولة الزمن متعددة المجالات ويعطيها كل مجال دلالة خاصة ويتناولها بأدواته التي يصوغها في حقله الفكري والنظري، وقد يستعير مجال معرفي ما بعض فرضيات أونتائج مجال آخر فيوظفها مانحا إياها خصوصية تساير نظامه الفكري وانطلاقا من هذا يراكم بدوره رؤيته المستقلة للزمن وتصوره المتميز عنه".¹

صار الزمان إشكالية فلسفية تعددت مفاهيمه حسب العقل العلمي الذي يدرسه فمفهومه يختلف من الفيلسوف إلى الرياضي والفيزيائي والطبيعي وصولا إلى النحوي فالأدبي، وقد رآه بعضهم من خلال تسلطه على الأشياء والحلول فيها "ذلك المتجسد في الكائنات والأشياء الدالة عليها المجدد لعمرها المسلط عليها في أي صورة من صور السلطان الزماني".² فتحدد مفهومه بجانبه الكثير من المخاطر، والقبض على خصوصياته تكاد تكون مستحيلة لطبيعته الزئبقية "وأول فكرة ظهرت حول مفهوم الزمان هي مبدأ الحركة والتغير والتطور لدى الفلاسفة الطبيعيين".³ أما أفلاطون فقد ربطه بالوجود فرأى «أنّه أساس الوجود وعلته وفي هذا المذهب تتأكد أساسيته للإنسان». ⁴ أما تلميذه أرسطو فيبتعد عن أسناده ويصبّ مفهومه تقريبا في الاتجاه الطبيعي ذلك أنّ الزمان "يتحدّد من خلال أبعاد الطبيعة والحركة والتطور... وتتجلى حركات الكون على الخصوص في حركات الكواكب، وهي مسألة تتدرج ضمن قضية الصيرورة التي تعدّ الشاشة الكبيرة التي يعرض عليها شريط الزمان بكل تفصيلاته وجزئياته".⁵ يربط هذا المفهوم الزمان بالحركة الطبيعية، وأيّ جهل به يؤدي حتما إلى جهل الطبيعة وضياح تحديده إماما ومقدارا وعددا وسرعة.

أمّا العرب فقد أوجز القرآن تصورهم له بأنّه الهاجس المدمر لحياة الإنسان «وقالوا ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر»⁶ فرأوا فيه الشبح الذي ينبئ الإنسان بين اللحظة وأختها بهلاكه وإنهاء وجوده، وما منجزاتهم قديما وحديثا إلا محاولة

1 سعيد يقطين، المرجع السابق، ص، ن.

2 عبد الملك مرتاض، النص من أين إلى أين؟ ديوان المطبوعات الجامعية، ص: 84.

3 أحمد طالب، مفهوم الزمان ودلالته في الفلسفة والأدب، ص: 09.

4 ينظر، بشيريو يجرة محمد، بنية الزمن في الخطاب الروائي الجزائري، ج 1، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2001، ص: 06.

5 أحمد طالب، بنية الزمان ودلالته في الفلسفة والأدب، ص: 10-11.

6 س الجاثية، الآية: 23.

لإيقاف زحفه وخطره الذي عبث بجهوده فألحق به الدمار والشقاء وأبكاه طويلا عند آثاره، وأشعره بالضعف، فحاول إثبات استمراره بتشديد المباني، وما النقوش والنحت والأساطير إلا وسائل للانتصار على الزمن بعد الموت. «فالزمن يفضي إلى الشقاء الإنساني نتيجة لنقصان تحقق الفعل»¹ ذلك أن طموحات الإنسان تحطمت أمام عتبات الزمن فخنقها على أبوابه فارتد قانطاً يائساً، وقد يحالفه الحظ فتتوَّج أعماله باكتمال الفعل وفي الحديث النبوي الشريف إشارة حقيقية لإبقاء صفحة الإنسان ناصعة مشرقة تدفع عنه عبثية الزمان «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له»².

فالانقطاع معناه الاندثار والنسيان، وتحقيق الأثر لا يكون إلا بالعمل، فالعمل حركة والحركة زمان مستمر، وبذلك العناصر يواجه الإنسان لولية الزمان وإعصاره، والموت جمود وسكون وهلاك، والزمان حركة لا تتنفس إلا داخل شيء سمته النشاط.

أما بروغسن «فقد أضفى على مفهوم الزمان أبعاداً ثرية تمثلت في تعميق الإحساس بالبعد النفسي وقد يطلق على هذا الزمان اسم الديمومة أي الزمان المطلق، فالزمن عنده أصبح يعبر عن الماضي والحاضر»³.

أما غاستور باشلار فإنه يفضل مذهباً عكسياً لأن الزمان في رأيه هو اللحظة «ليس للزمن إلا واقع واحد هو اللحظة، فالزمن واقع بحضور اللحظة، ومعلق بين عديمين، يستطيع الواقع دون شك أن يتجدد ولكن عليه قبل ذلك أن يموت فهو لا يستطيع أن ينقل كينونته من لحظة إلى أخرى لكي يكون من ذلك ديمومة»⁴ فالزمن يتجدد من خلال اللحظة وذلك راجع لاختلاف النظام المرجعي له من مرجع إلى آخر نظراً لسرعة التحرك.

ومع كل هذه المفاهيم فإن الفلاسفة قد سلموا بصعوبة تحديده «فكلمة الزمان وكل ما يتدرج تحتها من مرادفات مثل الدهر والحين يستخدم لتصوّر الوقت كما أنهم ربطوه بالجانب الحركي والنشاط الدائم للنفس البشرية فهو يمثل حركة الحياة وفعاليتها

1 عبد الرحمن بدوي، الزمان الوجودي، مكتبة النهضة المصرية، ط2، القاهرة، 1955، ص: 253.

2 رواه مسلم.

3 أحمد طالب، مفهوم الزمان ودلالته في الفلسفة والأدب، ص: 22-23.

4 محمد وقيادي، فلسفة المعرفة عند غاستور باشلار. الإستمولوجيا الباشلارية وفعاليتها الإجرائية وحدودها الفلسفية، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، 1970، ص: 194.

وكلما امتدت وتواصلت حركة الإنسان إلى الأمام كان هناك الزمان اللانهائي وبقدرة تغير المراحل وتحركها يمضي الزمان.¹ فالزمان يتحدّد من خلال الذات الإنسانية وخبراتها فهونشاط نفسي يدرك من خلال تغير المراحل وانتقالها من حال إلى حال، والنفس تعيش كل مرحلة وتترك آثارها الزمنية، وحركتها طولا وقصرا، فتعرف النفس ذاتها ومكانها، وإذا كان هذا الأخير مادة الوجود فالزمان روحه، فهو يمثل التجربة الداخلية للإنسان مقابل المكان كتجربة خارجية لأنه يدرك بالحواس، أمّا الزمان فيدرك بالقوة الباطنية. والزمان كمعطى وجودي وحركي وعنصر جمالي فهو المكوّن الأساسي للرواية في بعدها الفلسفي والأدبي فتبرز إشكالية يعاني منها الإنسان المعاصر، فعمقت دلالاته من حيث تواصلته الدائمة، وانقطاعيته وتوقفه، وتجاوزيته المستقبلية من خلال ربطه بحركة الإنسان، أمّا البعد الأدبي فقد نوّع أساليب العرض الفنية كالاسترجاع والارتداد والاستباق في إطارها الجمالي لخلخلة النظام الزماني.

3-1- الزمان الإيصالي:

يمثل العنوان لرواية "ذاك الحنين" عتبة منها تبدأ محاور النص ومقاربته لأنّ العنوان ماهو إلا بنية صغرى وخلية النص الأساسية، والمرور إليه مرهون بتأشيرة العنوان فهو يحمل الخصائص الجينية له، التي تمكّن القارئ من معرفته والقيام بالرحلة فتفتح النوافذ للتأمل والأبواب للولوج والعنوان من خلال طبيعته المرجعية والإحالية يتضمن غالبا أبعادا تناسية، فهو دال إشاري وإحالي يوحي إلى تداخل النصوص وتلاحقها وارتباطها ببعض عبر المحاور، ويعلن كذلك عن قصدية المبدع أو المنتج وأهدافه الإيديولوجية والفنية، إنّه إحالة تناسية وتوضيح لما غمض من علامات وإشارات فهو إذا النواة المتحركة.² "ولهذا لم يعد عنصرا تابعا، بل صار عنصرا بنائيا بعد أن أولته المنهجيات الحديثة اهتمامها الكبير يوم حوّلتها من عامل تفسير مهمته وضع المعنى أمام القارئ إلى مشروع للتأويل فقد أصبح نصا مكتوبا يتطلب جماليات من حيث التركيب والخط والدلالة، وقد تعدّدت الإشارات الدلالية للعنوان حسب توظيف النص والقراءة معا لأنه

1 ينظر، آسية بوعلي، أهمية الزمان في الفلسفة والأدب، نزوى ع: 30، 2002.

2 بلقاسم دقة، التحليل السيميائي للبنى السردية في رواية (حمامة سلام) للدكتور نجيب الكيلاني، مجلة الموقف الأدبي، مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد: 385، أيار 2003.

مفتاح تأويلي يومي إلى أمر غائب في النص على القارئ أن يبحث عنه لاكتشاف البنية المولدة للدلالة والجديرة بأولية التخييل.¹

فرواية ذاك الحنين تضع من خلال العنوان بنية صغرى ترتبط ارتباطاً وثيقاً مع بنية النص الكبرى في علاقة متبادلة يتم بها الإغناء، وتؤلف الوحدة التامة على المستوى الدلالي وبذلك الاختيار لهذه العتبة تقوم بالوظائف التي "حصرها جرار جينيت في أربع هي: تحديد هوية النص، والوظيفة الوصفية، ووظيفة دلالية، والأخيرة إغرائية."² (ذاك الحنين) مفتاح ذهني لفك شفرة التشكيل الدلالي وتلك إشارة أولى يرسلها المبدع إلى المتلقي، جملة اسمية قد حذف الخبر منها وهو الحنين الغائب، وهي مؤلفة من اسم إشارة دقيق يستعمل للمتوسط إلى مشارق حدّد تحديداً معنوياً معروفاً إلا أنّ دلالاته تنفتح على متعدّد هل هو مكان أم زمان في الماضي أوفي المستقبل؟ ويأخذ بذلك تغليفاً تعديداً منفصلاً ليتناسب مع ظاهرة التنويع الدلالي، ويتكرر الحنين في النص ويشد الارتقاء في أحضان الذاكرة، وتتكاثر لفظة الزمان كلها ملفوظات تحدّد خط الرواية نحو ظاهرة الزمان من خلال المكاشفة التي يقدمها النص في صفحاته الأولى عبر بنيات مفتاحية قد وضعها الكاتب كمحطات عبور تتضاف إلى العنوان مؤسسة البعد الدلالي، مفاتيح تسمح باستتطاق النص والولوج إلى أغواره وفق منهج قرائي متعدّد.

فالعنوان يحمل كثيراً من الأسى والشوق حيث يمتزج فيه البنية الصوتية بمشاعر النفس التواقّة إلى الزمان الإيماري الإيصالي والتأسف على ذهابه، وقد طمره الحاضر المتوقف المنقهر، فحزم الأول أمتعته وحطّ الثاني بكلّ، والحنين اسم معرفة دلالاته المثل والحضور في الذاكرة وهو إداة للحاضر فقولك: إني أحنّ إلى ذلك الشيء، فمعنى باطن القول: إني أتضجر من الظرف الحالي، ومن ثمة كانت فلسفة الزمان في هذه الرواية لفهم حقيقته، فمن الذي يصنع الزمان الإنسان أم المكان أم الوجود؟

وتبدأ تلك الفلسفة بالمفاتيح الصدرية للمتن، حيث تمثل ملفوظات موزّعة على الصفحة التاسعة تشغل داخل فضاء ورقي متفرّق، ففي أعلاها توجد عبارة تشكّل عنواناً دلالياً يشغل عليه النص "قراءة في المزولة" والمزولة اسم آلة وهي الساعة الشمسية التي يعيّن فيها الظهر

1 الشاعر خالد أبوخالد، دراسات وشهادات ونماذج شعرية، أدباء مكرمون، اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2002، ص: 20.

2 المرجع السابق، ص: 21.

الحقيقي بظل الشّاحص الذي يرفع عليها، إنّها آلة لضبط الزمان ومعرفة مقداره وسرعته، وأمة تهتم بهذا العنصر تكون قد وضعت أقدامها على طريق النهضة والحضارة إلا أنّ هذه المزولة داخل النص ستظهر مكسرة معطلة، عاث عليها الناس بقذاراتهم فتعرّضت للإهمال والتخريب وضاع الإنسان في متاهات اللازم فتعطّلت حركته. تحدّد هذه البنية غاية النص في تفكيك وقراءة الزمن الحاضر الذي تحوّلت فيه المدينة إلى أطلال تذرف عند أقدامها الدموع فتستدعي بنية أخرى:

قف بالمنازل ساعة وتأمل هل بالديار لرائد من منزل

وفي نفس الصفحة تتسلسل المفاتيح الزمانية الأخرى على مستوى البياض في شكل متباعد حيث تأخذ الآية الكريمة مكانها لتؤكد ارتباط زمن الإنسان بحركة الكواكب «هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب»¹ وينحدرتحت هذه الآية مقطع باللغة الأجنبية يؤكد أيضا قيمة الزمان في حياة الإنسان، وأنّ وجوده مرتبط بمعرفة وحساب الساعات الشمسية.

fais comme moi ne compte que les heures ensoleillees. ويدرج الروائي آية أخرى لجذر ربط الزمن بالشمس والقمر «جاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا»² وعدّ الشهور وحصرها مرتبط بحركة الكوكبين، وفي أسفل الصفحة يشتغل نص الحكمة بشكل مائل يمثل سلما للارتفاع، "الساعة الحقيقية هي التي تسيرها الساعة الشمسية."³ وإذا حاولنا جمع هذه الوحدات اللغوية تحدّدت خصائصها بالزمان (المزولة، الشمس، القمر، الحساب، الساعة، التقدير، السنين، الليل، ensoleillees- heures- compte) وكلها وظفت لفهم الزمان الإيصالي الذي يتأسس من خلال المرجعية الدينية التي تمثل النص الغائب مقابل النص الحاضر، فهو يشكل العلاقة الترابطية بين الحركة الكونية وحركة الإنسان في الأرض المتوجهة نحو الأعمار، والزمان إنسان وأفلاك ونستطيع قول ذلك من خلال مقابلة الألفاظ السابقة وارتباطها بالضمائر الدالة على الإنسان (واوالجماعة - moi) فذلك هو الذي يحقق النهضة والحضارة للإنسان حينما تتطابق الحركتان في اتجاه واحد.

1 الآية 5، يونس

2 الآية 96، الأنعام.

3 البيب السايح، ذاك الحنين (رواية) الجزائر، 1997، ص: 09.

تشكل الصفحة الأولى تناسبا ثريا يقرأ فيها الزمان من خلال نصوص متعددة تتوسع أكثر دلالة داخل النص حيث "يعد التناسب انطلاقا من الصيغة الصرفية للمصطلح تنوعا بنائيا في نسيج النص القصصي كأن ينصرف عن الهوية الأحادية لمصدر الخطاب إلى تعدد الهويات المرجعية المشكّلة لمعنى النص القصصي، وأفضل ما تتسم به عناصر المادة حين تتبنى على (المفاعلة/التناسب)، والتناسب بهذا المفهوم ارتقاء بفن البنية القصصية من البساطة إلى التعقيد، ومن الوضوح إلى الغموض".¹

إنّ هذه البنيات المتقاطعة تتفاعل في شكل جمالي حيث يتناسى المقدس بالحكمة والشعر والأجنبي لإخصاب التفاعل الدلالي وتكثيف مناخه وقراءته بعدة تشكيلات حول محورية المفهوم الزماني وإغناؤه بالحضور المشترك للنصوص والدخول في حوارات مرجعية لتشكيل علاقات مع الواقع الخارجي، ذلك أنّ النص الأدبي "يقوم على مقولة أنّه ملتقى نصوص أو مكان تبادل يخضع لنموذج خاص هولغة الإحياء ويعرّف التناسب في مبدئه كمجموعة من النصوص التي تتداخل في نص معطى".² فالتناسب غدا ظاهرة أسلوبية وبنية أساسية لقراءة كثير من القضايا الشائكة، فتصنع تعددا تأويليا وتشكل كتابة حديثة.

ويقدم ذلك البياض فضاء لقراءة الزمن، وتلك فجوات متروكة يملأها القارئ بنص منتج «الفجوات أو الفراغات هي المناطق غير المعبر عنها في الخطاب، والتي تناط بالقارئ مهمة تعبئتها مما يؤدي إلى إنتاج المعنى ونسجه للتفاعل بين النص والقارئ، وهكذا ترسم الفراغات والمناطق الخالية المسار لقراءة النص بواسطة تنظيم مشاركة القارئ في بنية الأوضاع المتحوّلة الخاصة بها وهي في الوقت نفسه تحفز القارئ لكي يستكمل البنية حتى يؤدي ذلك إلى إنتاج الموضوع الجمالي». ³

هذه المفاتيح تضع رؤية للزمان المتحرك، تتقاطع مع مفهوم أرسطو "فقد قدم فرصة جيدة للنظر في مفهوم الزمان وفهم علاقة الإنسان بمحيطه وبنفسه وكيفية التعامل مع الطبيعة والكون من خلال أهم العناصر المركبة لوجوده وهي الحركة والتغير والتطور".⁴

1 عميش عبد القادر، قصة الطفل في الجزائر، دراسة في المضامين والخصائص، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2003، ص: 193.

2 وائل بركات، مفهومات في بنية النص، دار معد للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1996، ص: 91.

3 حامداً بواحمد، الخطاب والقارئ، ص: 117.

4 أحمد طالب، مفهوم الزمان ودلالاته في الفلسفة والأدب، ص: 11.

يدرك الزمان من خلال حركة الكواكب وما ينتج عنها من ظواهر طبيعية مكملّة لسنن نظام الكون وعلى الإنسان أن يسايرها لأنها قائمة على الانتظام والتواصل والإنتاج، وارتباط الإنسان بالكون وحركته يشعره بالجزئية، فيندفع نحو النشاط لمسايرة الزمان النفسي والاجتماعي والموضوعي، فيثبت ذاته بإنجازاته وإضافاته في إطار التواصل الزماني ضمن منظور الديمومة كما ذهب إلى ذلك برغسون "إنّ الواقع الحقيقي للزمن يكمن في الديمومة، أما اللحظة فليست إلا تجريدا لا واقع له يفرضه فكرنا فرضا خارجيا على تلك الحقيقة، ذلك أنّ فكرنا الذي تتأسس معرفته على عامل المنفعة لا يستطيع أن يدرك الصيرورة إلا بتجزئتها إلى لحظات، وهكذا فاللحظة في الواقع تقطيع خاطئ للزمن ففي الواقع الحقيقي للزمن هو الديمومة فيصبح من الصعب أن نتميّر الماضي عن المستقبل لأنّ كل تمييز سيكون مصطنعا فالديمومة تدرك في وحدتها لا تقبل الانقسام".¹

يقوم الزمان في رأيه على التواصل والاستمرار وتقطيعه قتل له وقد طرحت الرواية، أنّ البناء الحضاري قائم على فكرة التواصل، والتفاتنا إلى الحنين من نافذة مخزون الذاكرة هوحنين إلى زمن كان متواصلا في طبيعته "فإن صاحب فكرة إقامة الساعة في قلب البلد قبل إطلاق النار بعقدين هو أحد الذين أعطاهم الإله الحكمة ليفقهوا أنّ البلاد كالإنسان لا تحيا بلا زمن".² فالزمن حياة والأرض امتداده وعندما يتحرك في كل شيء يحقق الاتصال، وبهذه الرؤية يعمق الكاتب فلسفة الزمن كما نظر "بروست حينما أطلق على الذاكرة (حسنا المباشر بالماضي) فالذكريات تحمل طابع الأصالة والصدق فيتعمق الإحساس بالزمن الذكري وهو الزمان النفسي الذي تحفظه الذاكرة الواعية".³

ويعتمد الروائي أسلوبه الاستنكار والاسترجاع لبعث ذلك الزمن من ذاكرة الطفولة، فمن خلال المشهد الحاضر لكتابات غامضة على الجدران تعكس اللاوعي بحقيقتها وماهيتها تنطلق الذاكرة لاستحضار عناصر الزمان الإيصالي "على لوحتي المصلصلة المسطرة بعقب القلم القصبي كتبت بالسمق وختمت بالمح فأكرمت بالتمر والروينة والعسل".⁴

1 محمد وقيادي، فلسفة المعرفة عند غاستور باشلار، ص: 194.

2 ذاك الحنين، ص: 86.85.

3 ينظر، أحمد طالب، المرجع السابق، ص: 24.

4 ذاك الحنين، ص: 43.

إنّ استتطاق زمن الطفولة لا يعد فقط هروبا من الزمن القائم وإحلال الزمن الإيصالي مكان الجامد، بل هو استدعاء لذلك الشعور الخالي من وعي الزمن وقلق الفناء المصاحب له وهو استدعاء لمرحلة الانسجام والتناسق بين العالم الداخلي والخارجي، فلا صراع بين الذات وموضوعها، إنّ إدراك لحالة الاندماج بين الزمن النفسي والموضوعي والتوافق بين الرغبة والإرادة والفعل، إنّ الزمن المفعم بالحركة والأمل والطموح وانبعاث الحياة في كل شيء "هنا كانت القشدة وكانت اللعب والدمى المتحركة، وكان المساء وكان الزوال وكانت العطلة وكان الفرح وهنا كانت صبايا جيل صيف الستين".¹ ونلاحظ ذلك التلازم بين المكان والزمان وديمومة التحرك وفق نظام منسق فكل حدث أو ظاهرة زمانها، إنّ زمان المدينة التي كانت تنظم وفق تلك الحركة، قائمة كنائسها مرفوعة صوامعها معبودة مزولتها مفتوحة جوامعها، وفي هذا الزمن الإيصالي ترتبط الأجسام بالأرواح والسماء بالأرض إلا أنّه قد تحوّل إلى شيء عالق بالذاكرة تستدعيه الذات متى تأوهت وازداد ضغط الحاضر عليها "فيلجأ الإنسان إلى استدعاء الماضي إلى حنينه إليه".²

يسعف أسلوب الاسترجاع الذات في نقلها من اللازم وفوضى الأشياء إلى الزمن ذلك لأنّ العلاقة بين العالمين الداخلي والخارجي غير متكافئة حيث يسيطر فيها الحاضر بواقعيته، ويواصل استفزازه للذاكرة فتهرب إلى الخصب النقيض تبغي الخلاص «لأنّ الزمن الخارجي فرض قوته وسادت كلمته وانتصر على الإنسان وقد نشب الزمن المنحرف مخالفه في الموجودات وفرض إرادته وحكم سلطانه وصارت له صور الفوقية والاستعلاء». "فهروب الإنسان من حاضره هو تمزيق له ومعانقته لمخزون الذاكرة هو استئناس بما نحتّه الزمان الإيصالي المتميز بالحركة والبناء والفن والحياة «فقد برهن العلم على تدفق الزمن وامتداد الأجسام إنّما يتوافقان على السرعة التي تتحرك بها هذه الأجسام»".⁴

إنّ التحرك نحو الأمام فكري وحضاري ويتساءل البطل (مولى المحنة) في (ذاك الحنين) عن مصير ذلك الزمان "لحظة من لحظات الصرع

1 المصدر السابق، ص: 53.

2 ينظر: نبيلة إبراهيم بين القصص في النظرية والتطبيق، سلسلة الدراسات النقدية، مكتبة غريب، دار غريب للطباعة، القاهرة، ص: 72.

3 ينظر: فوزي عيسى، تجليات الشعرية، ص: 84.

4 رونثال/يودين، الموسوعة الفلسفية، ت: سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1985، ط5، ص: 236.

المللمة في نثار الذاكرة يسأل زمنه أين الكتائب وأول مصلى عتيق، أين الكنيسة والسور، وأين دار الشرع والقدر، وأين مرايا البلاد ولوح بلدته الأحمر، أين لقالقها، أين الأدرج؟¹

إنها أسئلة تبحث في الذاكرة عن عناصر البناء المتطورة، فالزمان يعبر عن تتابع وجود الظواهر حيث تحل الواحدة محل الأخرى والزمان لا يرتد بمعنى أن كل عملية مادية لا تتطور إلا في اتجاه واحد من الماضي إلى المستقبل.

إن هذا الزمان العكسي شبح يحمل معاول الهدم والتعطيم «فأثره وتقله ونشاطه في الإنسان حين يهرم وفي البناء حين يبلى وفي الحديد حين يصدأ وفي الأرض حين تتخدد... وفي مالا يحصى من الأحوال والأطوار وهي تتحول من حال إلى حال ومن طور إلى طور.² فالذي يعيشه البطل هو التراجع وتكسير صيرورة الزمان وديمومته الأمامية والنتيجة القهقري وتدمير المكان والذات.

3-2- جدلية الزمان (المتوقف/ المنقطع):

تطرح الرواية شكلا آخر من الزمن المتوقف فهو زمن قوي الحضور ممتد السيطرة شديد التكتيف على سطح النص، يمثل التراجع والانقطاع، فقد أهمل الإنسان زمانه وأتلف مزولته فضاع وانقطع عن الحركة الكونية وأخذ إلى القهقري وأن أهل البلاد قد توقف زمانهم "مامعنى أن أكون حالة أنا في هذا الدمار."³ فيختار مول المحنة الرحلة «في لحظات توهه استشهد المزولة وهرب ملتجئا إلى علبية يستكنها سر الحقد عليه.⁴ وأخفى كم هي مرعبة في سرها المتذري تذكارات تبحث عن زمن ضاع.⁵ ذلك هو حال المدينة في زمانها المنقطع عن الحركة والتطور، وإذا أخذنا جدلا توقف حركة الأجرام فإن النتيجة هي توقف الظواهر الطبيعية وتوقف العدّ والحساب وجمود الحياة ذلك «أن الزمان متعلق بالحركة وهو عدد الحركة بحساب المتقدم والمتأخر فلا وجود للزمان بدون الحركة.⁶ فالحركة تحدد البداية والنهاية وتقف على العلل والأسباب، والحياة حركة تتجه نحو الأمام في مظاهرها الاجتماعية والاقتصادية وتفاعل الإنسان معها.

1 ذلك الحنين، ص: 64.

2 عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2004 ص: 262.

3 ذلك الحنين، ص: 16.

4 المصدر السابق، ص: ن.

5 الرواية، ص: 30.

6 أحمد طالب، مفهوم الزمان ودلالته في الفلسفة والأدب، ص: 14.

تكاد جدلية الزمن تكون أكثر تنوعاً في عنصر الزمان حيث تتقابل الأزمنة بمحمولاتها المكانية والإنسانية في خط انكساري متجاذب في بنية تقابلية يتموضع القارئ أمامها في زاوية يدرك بها تلك التبدلات، ويقف على الانقلاب الفطيع بين الزمن الإيصالي والمتوقف في علاقة تضادية بين السكون والحركة ذلك أنها "حياة وسعادة لأنها خاصية جوهرية في ذات الإنسان يتمكن بفضلها من استشراف المستقبل"¹ أما الجامد سدّ لعجلة التطور وفضاء للقلق المستمر يوقع الإنسان في غربة، فيعيش حالة من التوتر والاضطراب حول مصيره المهدّد فيلجأ إلى احتضان الزمن الماضي أو المستقبل لصنع الحركة النفسية المتخيلة «فأينما وجدت الحركة وجد الزمان وحيثما انعدمت الحركة غاب الزمان»² ويعكس هذا المقطع التوقف الرهيب "وفي أعلى البرج حيث المدخل المشقوق فوقه منشعب العلم بقية هالكة من آثار صافرة إنذار.. تتلف تباعاً وما عادت تعلن عن مواعيد الإفطار في رمضان الحلو.. وقد بنى عليها الطائر البرهوش عشه قبل أن يختفي مخلفاً.. الأبيض السائل لاصقاً بالأردواز متوقفاً عند حدود أعلى الساعة الجدارية الوسطى.. المتوقفة في الرابعة بعد الزوال.. المتأخرة عن الثانية جهة الشرق.. توقفت جميعها يوم توقف الزمان في البلاد، وانكسر زجاجها وتهرشم إطارها واندثرت أرقامها واسودت دوائرها."³

يؤكد تكثيف ألفاظ الدمار بشاعة النكوص وقذارة الإهمال وضياع المعالم في زمان عابث، مدينة أهمل أهلها آليات الزمن فتوقف كل شيء، ومارس الزمن المنقطع الاستعلاء والحضور مائلاً الصفحات "فقدت الإحساس بزمن الفصول من أين البدء؟ وأمسى الناس في البلاد يفقدون كل حين أسماء حشائشهم وأشجارهم وأسماء حيواناتهم ومأكولاتهم وأعطيتهم."⁴ وتتقاطع في هذا المقطع بتكرار بعض الألفاظ للدلالة على الزمن الميت الرهيب إذا أخذنا بقول مرتاض "فالحركة زمن، والسكون أيضاً زمن، وغير الحركة وغير السكون أيضاً زمن."⁵ فذلك يمثل زمن النسيان والهيدان وحالات من الجمود تسلم بعضها إلى بعض، فالإنسان يكبر فكراً وحضارة لا شهوراً وسنيناً

1 بشير بويجرة محمد، بنية الزمن في الخطاب الروائي الجزائري، ص: 2.

2 المرجع السابق، ص: 14.

3 ذاك الحنين، ص: 78.

4 المصدر السابق، ص: 79.

5 عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص: 360.

«فالحياة الحقيقية هي التي تسيطر فيها الذاكرة الروحية الصافية التي هي نموذج الإنسان وهي تتطور من خلال الزمن لا بد أن تخضع لثلاثة شروط أساسية؛ الفردية التامة المتمكنة من حريتها الكاملة، والتقدم المستمر عبر الوجود المكتسب، ثم عدم التراجع الزمني أي عدم العودة إلى تكرار أحداث مضت بعينها وعلى شكل واحد.¹ يمثل الزمان المنقطع ردّة عن هذه العناصر السابقة فتزداد به الذات عذاباً وخنقاً في خضم الغفلة والضياح «فأكبر خطر يحيق بالإنسان وأعظم مصيبة تحل عليه هو أن يعيش غافلاً عن الوقت، هو أن يحيا دون أن يشعر بالزمن لأنّ هذا يعني الموت ذاته.² الزمان المنقطع يخلخل نظام الحياة وإيقاعها بفعل المؤثرات الإنسانية الانحدارية، فيتراكم فعل الضغط على الذات فتؤرقها الحيرة. «فكل شيء في بلاصة الحيرة لا بدّله أن يتوقف لحظة، المزولة إلى الشمال توقف ظل الشمس عن دقائقها وثوانيتها إلا الألسنة فهي للمطلق.³ وتتضاعف مظاهر الجمود والسأم من خلفها، وسيط الزمن يلفح الوجود "ضائق القلب من بدء النهار، لولم يبتدئ النهار. أبدا.⁴ وحصار الزمن المنقطع يكسّر باستدعاء مخزون الذاكرة لأنها "أهم عنصر في الإنسان ليساعده على تمديد الماضي نحو الحاضر.⁵ يخترق امتداد المسار الحركي الماضوي من خلال المخزون المقدّس الحاضر ليوّسع أفق الزمن النفسي ويكسّر زمن اللحظة المدمّرة التي أثّفت قوانين زمن الطبيعية «أين الشتاء والتلوج، أين الخريف والهطول، والربيع والنوار، ومواسم الحصاد.⁶ لقد تداخلت أزمان البلاد وتكرّرت أشكاله في صورة التباطؤ فانسحقت الذات، ونقف على الجدل الزماني المتكرر من خلال أساليب التقابل والاسترجاع والارتداد لإظهار الصراع "هنا كانت سوزان، هنا أصبحت عينونة، هنا كان متحف هنا أصبح حماس، هنا كان ورد يسقى على هذه الشرفة، هنا أصبح ولد بوخنونة يعطن...⁷ تتلاحق المؤثرات الزمانية في بنية أفعال تعكس محمولات المسخ الرهيب

1 بشير بويجيرة محمد، بنية الزمن في الخطاب الروائي، ص: 18.

2 عقاق قادة، جماليات المكان في الشعر العربي المعاصر، (جدل المكان والزمن)، دار الغرب للنشر والوزيع، ط2، 2002 ص: 63.

3 ذاك الحنين، ص: 58.

4 المصدر السابق، ص: 78.

5 بشير بويجيرة محمد، المرجع السابق، ج1، ص: 18.

6 ذاك الحنين، م، س، ص: 65.

7 المصدر السابق، ص: 53.

(كان، أصبح) (كان، صار) (كانت، أمست) فالأولى تفيد الوجود والكيونة أما الثانية تحمل دلالة الأزمنة الطارئة الموصوفة بقذارة التحول تعرض في أسلوب انكساري ومن ثم تزداد وطأة الزمن ومأساته، فتتمدد الكآبة وتتقبض الذات ويتقلص الفرح ويتحجر الزمان. يوقف أسلوب الإبطاء حركة السرد ليكتف مشاهد الزمان وذلك لإدائته ومحاكمته ومحاولة تغييره لكن العجز يحول بين ذلك "لم تستطع الكشف الإسلامية بنيتها الخالصة وجدها إعادة جدول الحساب والزمن إلى عهد إشعاعهما... ومنذئذ لم يعد للبلاد زمن فأخطأ مواعيده جميعا".¹ وتتواصل جدلية العداء بين الغائب والحاضر ويبرز الجدول الزمني الجدلي المكاني، وهونوع من المزاجية بين المعطى الزمني والمعطى المكاني، ذلك لأنّ الزمان لا يتم إلا في مكان فينعكس الاستلاب والمصادرة، ويكتنف أسلوب الاسترجاع والاستغراق في الماضي وهذا الالتصاق يمثل اعترافا به وتدميرا للحاضر.

إنّ جدلية الزمن بين المنقطع والإيصالي هو صراع بين الخصوبة والقحط والوجود والعدم، وتصادم بين المجدي وغير المجدي، وأسلوب الخط الانكساري يضع القارئ أمام زمانين متناقضين، وهذا الجدول قام عليه الخطاب السرد في شكل تقابلات وتفاعلات هندسية معمارية، وفي أسلوب التوازي تتوّعت الصور فتوازت المفردات والأزمنة والأماكن في بنيات لفظية ومقاطع مطولة، "والتوازي خاصية لصيقة بكل الآداب العالمية قديمها وحديثها شفهية كانت أم مكتوبة إنّه عنصر تأسيسي وتنظيمي".² وهذا التوازي أثرى خاصية التنويع من خلال تعدد الأمكنة، وكان لأسلوب الارتداد نفس الوظيفة فهو «أكثر الأساليب شيوعا حيث يتم بواسطته التفاعل بين الماضي والحاضر فتتصهر المسافتان الزمنيتان في إيقاع واحد». ³ وهذا التقاطع الزمني يخلق زمنا جديدا كما يرى آلان روب جرييه «أنّ الفيلم والرواية يلتقيان اليوم في بناء اللحظات والفواصل والتواليات الزمانية، وهي كلها أزمنة لا ترتبط إطلاقا ولا تشبه أزمنة الساعة». ⁴

حققا أسلوبا الاسترجاع والارتداد بعدا جماليا من خلال العودة إلى الماضي إذ يحدث "خلخلة رهيبية وتداخل زمنية بين الفترات إلا أنّه

1 الرواية، ص: 82.

2 محمد مفتاح، التلقي والتأويل، مقارنة نسقية، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط2، 2001، ص: 149.

3 أحمد طالب، مفهوم الزمان ودلالته في الفلسفة والأدب، ص: 26.

4 ALAIN ROBBE-GRILLET pour UN NOUVEAU ROMAN.P.130.

يحقّق تكاملاً وتتأسباً في انتقاء الماضي والحاضر.¹ كما أحدثت تلك الجدلية انزياحاً أسلوبياً عن المؤلف في ترتيب الأحداث «ذلك من خلال ترهين الحكي وتكسير خطية التسلسل أمكننا معاينة كون الكاتب في هذا الحال يقدم بناءً جديداً».²

تواترت الأحداث بالتكسير في اضطراب متنوع البناء "يخلخل أفق انتظار القارئ ويعد انزياحاً عن المعيار السائد في الكتابة الإبداعية".³ فالتنويع يوسّع حرية التنقل ويزيل الحدود الفاصلة بين الأزمنة ذلك أن "التسلسل الطبيعي للأحداث يقرب العمل القصصي من شكل جريان الوقائع كما ألفها الناس في الواقع، والمبدع الروائي يسعى على الدوام إلى شدّ انتباه القراء بتكسير ما هو مؤلف لديه".⁴

ولجوء الروائي إلى تنويع زمن الحكي وتكسير اشتغاله وسواء بالمفهوم الفلسفي أو بزمن القص هو توجه لتحقيق البعد الاستنقي المحض "ومن ثم أخضعت الأحداث للتقديم والتأخير بغية تحقيق أعلى ما يمكن أن تحقّقه من جمالية".⁵ فأساليب الارتداد والاسترجاع يصطنعهما الروائي «فكان التذبذب الزمني أو التشويش على مساره الطبيعي في المكوّن السردى هو ضرب من التوتّر الذي يشبه توتير النسيج الأسلوبى باستعمال الانزياح اللغوي فيه». ⁶ والتوتّر تقنية لتخفيف حملة وتليين حركته «فاللعب بالأزمنة هو عمل جمالي بحت». ⁷ وتساهم اللغة بشكل مكثف في إحداث التقطيع الزمني على مستوى نظام الخطاب فهي «قد تقطع تيار الحوادث بأن تجعل الماضي يتسلط على الحاضر ويكيف حركته ومغزاه». ⁸ وتظهر الأزمنة في شكل حاد حيث يتحرك الماضي نحو المستقبل وتؤدي اللغة دور الناقل من الخلف إلى الأمام إلى المستقبل ويتواصل الجدل في إعادة الماضي بكل خصوصياته الإيمارية والحضارية.

1 بشير بويجرة محمد، بنية الزمن في الخطاب الروائي الجزائري، ص: 21.

2 سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ص: 73.

3 ينظر: حميد لعمداني، أسلوبية الرواية، (مدخل نظري) منشورات دراسات سيميائية أدبية لسلمية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1989 ص: 81.

4 ينظر، المرجع السابق، ص: 82.

5 عبد الرحمن بوعلي، الرواية العربية الجديدة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، المغرب، 2001، ص: 202.

6 عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص: 287.

7 محمد عزام، الأسلوبية منهجاً نقدياً، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 1989، ص: 214.

8 نبيلة إبراهيم، نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية، الحديثة مكتبة غريب دار غريب للطباعة، القاهرة، ص: 31.

حافظ هذا التنوع في مسار الزمن والحدث على الفكرة الأساسية من الضياع وأبرز الرؤيا المقدمة عن طريق المقابلة والمفارقة، وتضاعف الفعل القرائي فيها نزولا وصعودا "فهيمنة المفارقات التي تتداخل فيها الأزمنة وهيمنة المشاهد المتقل فيها من فضاء إلى فضاء، ومن زمن إلى زمن آخر ومن حدث إلى شخصية، تبرز بوضوح تكسيرة خطية زمن القصة وتقريب المسافة بين الأزمنة المعاشة والمتخيلة والكامنة في الذاكرة والمحتملة أيضا".¹

يحدث التنوع في مؤشرات الزمن تعقيدا وخلخلة في زمن الخطاب ويمنح الرواية نحوية زمنية خاصة تعمل على إبراز الجدلية بين العقم والنماء بين الاتصال والانقطاع، ووصف السايح هذا الزمن بـ (القبلي) وهي ريح جنوبية جافة محملة بالغبار كبنية زمنية رمزية، ذلك أنه زمن القلق والاضطراب تشعر النفس فيه بطول اللحظة ودوام مكوثها، فيزداد الضغط واليأس، وتتسارع لحظات الفرح والاطمئنان هروبا ونفورا في مشهد من التلاحق الرهيب.

3-3- الزمن المتجاوز (الاستشراقي):

عندما يعود الماضي ذكرى بعيدة وتعجز الذات في تحطيم معاول الحاضر المشقوق، تلجأ إلى خلق زمن استشراقي تتجاوز به الضربات الآنية وآثارها، فترفع لواء النهضة والبعث الحضاري من خلال رؤية متحررة لإعادة تشكيل الواقع وتجديد آفاقه حيث "يبقى إدراك الزمان المنفتح أمامنا مرتبط بمدى تفكيرنا في المستقبل وبمقدار الاستراتيجيات التي نتبينها من خلال وضع مخططات مستقبلية نصوغها لحياتنا، وبإبعاد كل شعور غامض جدا ومحاولة توسيع آفاق المستقبل لتكسير ضيق المعيش، فالمرء يشعر بالوقت بقدر عدد المشاريع".²

ترسم تلك الآفاق الزمانية للمستقبل المنفتحة بتجاوزها للماضي والحاضر معا، وقد يمتزج الماضي بالمستقبل لطمس الحاضر في حركة دينامية فعالة تخلق زمنا جديدا تتجاوز به مرحلة القلق الذي يعاني منه إنسان اللحظة وهو يطمح إلى زمن حيوي "وإذا كان الزمن بخاصة في عصرنا الذي يتميز بإيقاعه السريع أصبح يشكل للإنسان مشكلة نفسية خطيرة، كان لابد أن تتأثر الأعمال القصصية بهذا الحس الزمني تأثرا بالغا ولهذا فإثنا كثيرا ما نجد أن الرواية الجديدة لم تعد

1 المرجع السابق، ص: 165.

2 ينظر، أحمد طالب، مفهوم الزمان ودلالاته في الفلسفة الأدب، ص: 24.

تركز على تصوير الشخص أو الأحداث بقدر ما تهتم بإبراز المتغيرات النفسية التي تحدث داخل الإنسان نتيجة إحساسه بإيقاع الزمن.¹ هذا الزمن المتسارع والمتراتب الذي يعج فيه الإنسان ويضطرب في دوامته يدفعه إلى الحنين إلى زمن آخر، وما قفز الشخصيات على هذه الأزمنة إن هو إلا انتقال إلى مجموعة الذكريات أو الاحتماء بالمستقبل الاستشراقي، وتكسير الزمن هوترغ له وهروب بالذات عبر زمن لا واقعي يفتح على الأحداث، وتلك تقنية تحول السرد إلى أسلوب عابر للأزمنة "ومن حين لآخر تأتي القصة على دفعات ولكننا بين هذه الأمواج نقفز قفزات كبيرة على غير هدى منا."² تشكل هذه الوثبات المتحررة تقاطعا زمانيا متداخلا يجمع بين التاريخ الشخصي والوعي المستقبلي والحاضر ومشكلاته فتفجر سكونيته لأنه يمثل الزمن الغريب وتلك خاصية تنويعية تلمس في النص الجديد ذلك أن الرواية "تتوزع على زمن مغترب وآخر يطارد رغبة لازم لها تتوسل الشكل الفني ملاذا لها بعد أن أوصد المجتمع في وجه الرغبة بوابته الحديدية."³

إن الاتجاه نحو المستقبل المتخيل هو قفز على حساب الأحداث، وسرعة لتجاوز الحاضر الذي يتنامى ببطء، إلا أن الزمن الاستشراقي في رواية "ذاك الحنين" لا يكاد يبرق إلا من خلال ثقب في صخرة ضخمة أو أمل منحوت على صفحة الماء "واليوم من غده أيل إلى الحسرة."⁴ وفي الأفق عجاج مظلم منضرب يحجب البرق والرعد والأمطار.⁵

يأخذ زمن الأفق في هذه الرواية من الحاضر استقواءه واستعلاءه ويدفع نحو البحث عن زمن مفقود، فالإنسان "يستدعي المستقبل لأمله فيه أويأسه منه."⁶ ذاهب إلى علجية بحثا عن ساعة من الذوبان يغبطه حجر نسيه القضاء... حلم بهجرة إلى أرض لا يصلها القبلي ولا تعركها يد هلالية.⁷ "اضرب لثامك وابحث في العاصفة عن سبيل."¹ «أنا ذاهب أنت راحل، دمرتنا حماقات البشر."²

1 نبيلة إبراهيم، نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة، مكتبة غريب، دار غريب للطباعة، القاهرة ص: 31.

2 ميشال بوتون بحوث في الرواية الجديدة، فريد أنطونيس، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط2، 1982، ص: 100.

3 فيصل دراج، نظرية الرواية والرواية العربية، بيروت، ط1، 1999، ص: 16.

4 ذاك الحنين، ص: 42.

5 المصدر السابق، ص: 144.

6 نبيلة إبراهيم، فن القص في النظرية والتطبيق، ص: 72.

7 ذاك الحنين، ص: 144.

تسود الزمن الاستشراقي في هذه الرواية ضبابية، وتطغى على رؤيته قتامة، والعتور عليه يدفع نحو الاغتراب لتحويل السراب إلى حقيقة، فالإنسان يعيش أزمة زمن يفتش عنه في مستقبل مبتور في زمن الضياع والفراغ، وتتواصل إشكالية البحث عنه بروح مغتربة تتشظى فيها الذات متلظية بأشواق الحنين تبحث عن الدفئ الخيري، وتشرب نحو الأزهار في زمن الأشواك وتتلف الشعاع في زمن الرؤية المتقوية، والبصر المنطفئ في زمن الجنون، تحاور بأسا أصما وتحاشي قنوطا مفتحا على ردة تحطمت أمامها كل القيم الدافئة.

يرتسم الزمن المتجاوز من خلال فنية الأسلوب الاستباقي في رؤية قد تكون مفتحة أو منغلقة «تتوقع ما سيحدث في المستقبل ولا يهتم الكاتب الزمان في حد ذاته بقدر ما تهمة دلالاته الذاتية والاجتماعية التي تخرج بنا من دائرة النُصور السكوني للزمان إلى أفق مستقبلية جديدة، وإنّ استخدام أسلوب الاستباق الزماني يمثل رغبة الكاتب في تحقيق بعض الغايات الجمالية».³

إنّ ارتقاء الذات في أحضان الزمن المستقبلي هو محاولة لإيجاد فضاء حيوي متميز، وإخصاب لحظته تجعله قادرا على الديمومة مستعصيا على الزمن العقيم متحركا اتجاه الماضي الأثير والمستقبل المنشود ترى فيهما الذات المرأة المتحركة «إنّ إيجاد أجوبة لإشكاليات الزمن تساوي العثور على معنى الحقيقة تؤكد وجود الإنسان فتخلق ذاته من جديد، فالرواية فضاء لصنع زمن المستقبل لا يكف عن التحول والتغير».⁴

لقد شكل عنصر الزمن في الرواية ظاهرة متنوعة في بعدها الفلسفي (الإيصالي، المنقطع، المتجاوز) وطريقة فنية في تشكيلها الأسلوبي باعتمادها أساليب الاسترجاع، الارتداد، الأنية، الاستباق لتحقيق غايات جمالية، ونوع من المساءلة والمحاورة والمواجهة للأزمة بأبعادها الفلسفية والجمالية، وقراءة للعالم الخارجي الذي صار يحمل عدائية للإنسان من صنع الإنسان.

إنّ رحلة الإنسان عبر الزمن الانفتاحي أو موروث الذاكرة إنقاذ له، وآفاق يسكن بها خوفه وبلاستباق والاسترجاع تتحول بصيرة المبدع إلى المتلقين فينفذون إلى حقائق الأشياء فيفقهون جواهرها،

1 الرواية، ص: 145.

2 الرواية، ص: 146.

3 أحمد طالب، مفهوم الزمان ودلالاته في الفلسفة والأدب، ص: 27.

4 ينظر، فيصل دراج، نظرية الرواية والرواية العربية، ص: 26.

فالتنوع الزمني يعطي السرد حرية الانتقال من السكونية إلى التحرك، فتتجدد الحياة داخله، فالذات لا يمكنها أن تلغي الأزمنة الأخرى فإن فعلت ذلك كُتِلت البنية السردية بالأحادية الأفقية ولذلك وجبت المحافظة على الحركية المتنوعة في بنائية مضادة تتزاح فيها عن الخطية الميقائية ومن «ثمة فليس في إمكان الوعي التذكيري أن يتواصل مع الصيغ الثابتة لواحادية الزمن وإنما يتفرع إلى مالا نهاية إلى الانتشار الزمني وفق ما تتفجربه البنية السردية من تنوع كلامي ذي دلالة عميقة»¹

خلق التذبذب الزمني موسيقى داخلية نتيجة للتموجات النفسية التي يعيشها المبدع من حالات الحنين والأمل والشوق والقلق والتوتر الدرامي والصراع والتقطيع المستمر، ودفع الأحداث في إطار النسق الزمني التصاعدي، وكان لذلك التراكم الدلالي للأفعال والأسماء والمشتقات الزمانية أثر في تكثيف ذلك الفضاء، وسمح بتبادل التأثير وخاصة الزمن السيكولوجي، فاحتشد زمن البكاء والحنين والاستشراقي لترميم الواقع برؤية خلقت ذلك الإيقاع الزمني المتسارع المتوتر «فإنه من الصعب تخيل وجود رواية لا تنوع للسرعة فيها ومن ثمة لا تنوع في الإيقاع»²

تتوزع حالات التدفق النفسي عبر الأزمنة فتنتشر الذات فيها وتتشرطشظايا داخل هذا التنوع فيبدو الزمان فيه متناوشا متناحرا بممارسة الاختراق للآخر، فالمقطع الكبير تخترقه مقاطع صغيرة والكبير يفتت الصغير ذلك «أنّ الزمن الواحد المتمائل موت وأنّ التناقض جوهر الحياة المتدفقة»³

لقد مثل الكاتب بهذه الخلطة تغيير المواقع من خلال التراكمات الاجتماعية والمنظومة الفكرية والفلسفية فلم يعد الزمن مسترجعا لشريط الأحداث الماضية بل صار يمثل المؤسسات الاستراتيجية لاستشراف المستقبل بناء على وقائع وأحداث لترسيمه حيث "يقف الزمن الروائي قلعا متعّداً الوجوه يتعامل مع التاريخ واليوم واللحظي ومع الزمن النفسي ومع الأحلام والكوابيس" ⁴

1 عبد القادر فيدوح، شعرية القص، ديوان المطبوعات الجامعية، المطبعة الجهوية بوهران، 1996، ص: 99.

2 السيد إبراهيم، في نظرية الرواية، دراسة مناهج النقد الأدبي في معالجة فن القصة، دارقباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص: 114.

3 فيصل دراج، نظرية الرواية والرواية العربية، ص: 25.

4 فيصل دراج، نظرية الرواية والرواية العربية، ص: 26.

تجاوز التعدد الزمن الموضوعي المتعاقب ذلك أن الأمامي المنتظم «بخطه الممتد يمكن تثبيت أجزائه»¹ وإنسان اليوم لا يعيش الحركة الانتظامية بل هويّج في خطوط اضطرابية تلحقها انكسارات متوالية، وقد اختار القص تلك التموجات الإقاعية داخل زمن متنوع ليحقق مجموعة من المفارقات التي تربط عناصر العمل الروائي «فالاسترجاع والاستباق يمثلان عصب المفارقة السردية ذلك أن السرد الاستذكاري حركة تتجه نحو الخلف والسرد الاستباقي حركة تتجه نحو المستقبل وكلا الحركتين المتعاكستين تتخطى الزمن الحاضر فالحركتان تخلخلان النظام الزمني للرواية»².

أحدث الزمن بحركته الخيالية عوالم لا تعترف بالثابت المتعالي والمعطى النهائي، فتأرجحت في تموجات إقاعية جمالية اختفت خلفها النفس الحاملة والمتضررة والهادئة، والصاخبة المستهزئة، فتهدئها الإشراقات فتسكن، وتباغتها الانكسارات فتضطرب، وتصابح السفر فترسو عند جزيرة عامرة بالثمار فتطمئن وتفرع عند الموحشة، وتلك عوالم صنعتها رواية ذاك الحنين في أزمنتها المتعددة.

1 عبد الحميد المعايدين، التقنيات السردية في روايات عبد الرحمن منيف، ط1، منشورات 99، ص: 57.
2 صالح مفقودة، نصوص وأسئلة، دراسات في الأدب الجزائري، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، ط1، المطبعة ارمومة، الجزائر، 2002، ص: 17.